



كل صباح تردد المُدرسة الشعار "أهدافنا" ليجدد الصغار "وحدة وحرية واشتراكية"، لكن ذلك الصباح وبعد أن قالت "أهدافنا" كان الرد "وحدة واشتراكية" وتساءلت المُدرسة: أين سقطت الحرية؟ لتجيب جمانة "بالأمس بابا قال حرية فأخذته العسكرية".

جمانة فتاة السادسة، تتكلم كثيراً واعتمدت على ترتيب مكتبيها الصغير ذي الألوان الزاهية، اعتادت ان تلعب بألعابها، قتل...ك العروس الممشطة، وهذه العربية الملونة، تلعب بهم وتعيدهم إلى حيث كانوا كما علمتها أمها.

جمانة تفاجأت أن ما تعلمته من غسيل يديها قبل الطعام والجلوس إلى الطاولة وممارسة العادات اليومية بكل قدسية تم رميها على الأرض، تذمرت من انقطاع الكهرباء عن منزلهم لفترة طويلة، وهي التي اعتادت أن ترى والدها مصمم البرامج والمواقع يعمل منذ الصباح حتى المساء قربها.

أصبحت لياليهم متشابهة بعوتها، وصوت الرصاص هو الموسيقى الوحيدة في الحي الذي يقطنونه في درعا . وهناك العسكري الذي يحمل سلاحه ويفتش الداخلين والخارجين من الحي، جمانة سالت "بابا هل اسرائيل دخلت أرضنا" يسكنها والدها بإشارة فهمت أن الحديث يجب أن يكون فيما بعد.

سنوات عمرها السست لم تشفع لها أن تسأل وتسأل، والأجوبة كلها مبهمة، لتأتي بالنتيجة وتقول "عصابات بشار الأسد هي التي تقوم بذلك". والدها ارتعبا! فالحديث ولمجرد الحديث أصبح فيه الكثير من الخطر على حياة الناس في هذا الموضوع. فالقدسية التي عاشوا بها لأكثر من أربعين عام، لتصبح سوريا باسم "سوريا الأسد" ليست بالأمر السهل ليستوعب الناس أن هناك من يقول أن بشار الأسد رئيس عصابة، والتمثال والصورة "رمز العائلة" يجب أن يتهدما، ومن جرؤ في إحدى المرات على ذلك لم يعرف عنه شيء حتى الآن، إن كان الموت من نصيبه أم مازال قيد الحياة فلا أحد يعرف.

لم تعد تسأل جمانة التي أصبح عمرها بعد أربعين يوم من التظاهرات، ستة وأربعين سنة، فما تعلمته في سنواتها السستة تم محيه لتحول محله ثقافة الرصاص التي تسمعها كل يوم، والانقطاع الدائم للكهرباء كل يوم، ولم يعد يعنيها أن تغسل أيديها في الصباح أو المساء أو قبل الطعام او بعده لأن الماء أصبحت شيئاً نادراً في حيهم، وأصبح من يملكون ملك الأرض ومن عليها.

طعامهم أصبح عند الجوع فقط، والمدرسة التي تذهب إليها كل يوم، باتت مغلقة بسبب الإصلاحات كما قالت المديرة، والجدة والجد صار زيارتهم نادرة، فإن دخلوا الحي لم يستطيعوا الخروج وإن خرجوا منها لن يدخلوا قبل عدد من الأيام. رأت رجال يدخلون ويمسكون والدها فذلك التاريخ حفرته الذاكرة ولن تنساه كعید ميلادها، في تلك الأيام حيث أصبحت

الشوارع خالية من رجالها، والنساء تصرخ لا تعودوا قبل ان يسقط النظام أو تموتوا دون ذلك، وبالفعل من خرج منهم لم يعد حتى تاريخ الكتابة.

رأتهم يضربون أباها ويجرونه ويمزقون ويكسرون كل ما يرونـه، لم يشعـعوا للطفلة الصغـيرة رؤيتـهم بهذهـ الهيئة، وكلـ ما رأـتهـ أنـ والـدهـا قالـ بالـأمسـ "ـحرـيةـ"ـ، لمـ تـفـهمـ الـحرـيةـ، فالـطـعامـ الـذـي تـأـكـلهـ لاـ يـحـويـ هـذـهـ الـكلـمـةـ، والـأـشـخـاصـ الـذـينـ تـعـرـفـهـمـ لاـ يـحـمـلـونـ هـذـاـ الـاسـمـ، إـذـاـ هـيـ كـلـمـةـ يـجـبـ أـنـ لـاـ يـنـطـقـ بـهـاـ أـحـدـ، فـقـدـ تـكـوـنـ كـفـرـ، وـقـدـ تـكـوـنـ شـتـيمـةـ، وـعـيـبـ عـلـىـ الصـغـارـ أوـ الـكـبـارـ أـنـ يـشـتمـواـ أـحـدـ.

لـذـاـ غـيـرـتـ الشـعـارـ وـأـخـبـرـتـ أـصـدـقـائـهـ أـنـ الشـعـارـ بـعـدـ الـآنـ هـوـ "ـوـحـدةـ وـاشـراكـيـةـ"ـ، لـأـنـهـ يـأـخـذـونـ كـلـ مـنـ يـتـلـفـظـ بـالـحرـيةـ. جـمـانـةـ نـسـيـتـ إـلـيـنـتـرـنـتـ الـذـيـ يـعـلـمـ وـالـدـهـاـ عـلـيـهـ، وـفـيـ أـحـدـ الـأـمـاسـيـ تـسـأـلـ وـالـدـهـاـ "ـلـمـاـذـاـ لـاـ نـسـمـعـ صـوـتـ الرـصـاصـ؟ـ هـلـ مـاتـ عـصـابـةـ بـشـارـ؟ـ".

وـالـدـهـاـ ضـحـكـتـ وـقـالـتـ "ـالـمـوـتـ أـصـبـحـ رـحـمـةـ فـيـ حـكـمـ بـشـارـ"ـ.

المصادر: